المشهد الثقافي المغربي في عيون ابنائه:

مشهد نخبوي والثقافة تحتل مرتبة دنيا في استراتيجية التنمية

الرباط ـ «القدس العربي» ـ من عبد الرحيم الخصار:

من ينظر بعينيه الى المشهد الثقافي المغربي سيغلقهما بسبب كثرة الغبار، إذ أن أشياء كثيرة هنا لا يمكن فهمها، فالمسؤوليات الثقافية غالبا ما يتحملها أشخاص لا علاقة لهم بالثقافة، والمؤسسات الثقافية أيضا تبدو شبيهة ببقية مؤسسات الدولة من مستشفيات ومدارس وخيريات، الكاتب المغربي لا يجد له سندا على الاطلاق، ولذلك حين يصيبه السرطان أو القصور الكلوي يتحول الى شحاذ يتسول الرحمة من «المسؤولين»، لا يوجد في المغرب كاتب واحد متفرغ، وموازاة مع ذلك يوجد حشد من الكتاب المعطلين، لا يوجد أيضا كاتب واحد يحمل في بطاقة الهوية صفة «كاتب»، الدولة هي الأخرى تضع الثقافة في آخر اهتماماتها ولا تمنح من أجلها سوى ما يمنحه رجل ثري لرجل يتسول.

رغم كل ذلك يكتب المغاربة بالليل والنهار وتجدهم في كل الجرائد والمجلات العربية نقادا ومبدعين، ثمة تجارب عديدة تجعل المتتبع ينزع قبعته وينحني احتراما لها، ربما لذلك يقول كاتب في حجم أحمد بوزفور: الأمل هو ما تبقى لنا.

نحاول في هذا الملف الاصغاء الى المبدعين المغاربة لمعرفة كيف ينظرون الى واقعهم الثقافي، لمعرفة ما الذي يقلقهم وما الذي لا يروقهم في مشهد ثقافي ينسجم هو الآخر وبشكل غريب مع بقية المشاهد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في فصل صعب يدعى المغرب.

أنيس الرافعي. الدار البيضاء: مؤسساتنا الثقافية أعلنت افلاسها.

لنجزم، منذ البداية، أن هذا الحيز الرمزي المسمى «مشهدا ثقافيا»، هو حيز نخبوي الى أقصى الحدود أو بالأحرى الى أقسى الحلول بالمعنى المؤلم للكلمة، يقتصر على المشتغلين فيه والمدبرين لشؤونه ولا يحظى سوى باهتمام خافت من لدن الجمهور.

اذ أن غلبة «الطابع التجريبي» على ما ينتج داخله جعل جسور التواصل شبه منقطعة بينه وبين «يا أيها الناس». وفي ظل هذا الوضع الملمع اليه، تصبح الرطانة عن مفاهيم تجريدية من قبيل (حركية أو دينامية أو تيارات ثقافية) ضربا من «أوهام النخبة» على حد توصيف صديقنا المفكر علي حرب.

ان الغالبية العظمى من الكتاب والأدباء المغاربة الحقيقيين التي لم تكن نتاجا طبيعيا لـ«تقنيات التصنيع والفبركة الثقافيين»، لا تدين في ذيوع اسمها وانتشار مقروئيتها سوى لنضالها الذاتي ومجهودها الشخصي، أما «المؤسسات الثقافية»، خاصة الرسمية منها، فقد انتهت ـ في تقديري الشخصي ـ أسباب وجودها التاريخي وأعلنت افلاسها الذريع منذ زمن بعيد، ربما لان معايير حظوتها وشروط الانتماء الى «سلطتها» تتناقض طرديا مع الجوهر المشكل لكل مثقف نزيه، ألا وهو «الاستقلالية المطلقة والوعي النقدي الحاد» كما وضح ذلك الراحل ادوارد سعيد في العديد من كتاباته.

أما فيما يخص مشاكل هذا الكائن الهلامي والفنطاسي الموسوم بـ«المشهد الثقافي» تجاوزا، فقائمة مديدة من الصراعات الغوغائية، والاحترابات الجانبة لصوالب الأدب، والتراشقات البئيسة، والاحتدامات الشعبوية، والقوائم الحزبوية السوداء، والاقطاعيات الاجناسية المغلقة، والمعارك الجيلية المجانية، التي تشي بغياب مدقع لمشاريع الكتابة وكذا الخليقة، طبعا، بكل مشهد ثقافي متخلف. غير أني (وان كنت في وقت ما طرفا مشاركا، بشكل من الأشكال، في هذه القائمة لاعتبارات أطلقت عليها «الأخطاء التكتيكية المقصودة») لا أخفيك مبلغ افتخاري بالانتماء الى الأدب المغربي الراهن الذي يضم بين حناياه شعراء لقصيدة النثر من العيار الرفيع وقصاصين محدثين على درجة عالية من الابداعية ونقادا جددا بمرجعيات معرفية متميزة وروائيين شبابا من الطراز الحكائي الممتاز، ومن واجبنا جميعا كمغاربة أن نراهن عليهم بكل ما أوتينا من محبة وحدب للدفع بعجلة المشهد الثقافي الى الأمام كي يأخذ المكانة اللائقة به عربيا ومتوسطيا وكونيا. وعفا الله عما سلف.

بن يونس ماجن: لندن: المشهد الثقافي مزدحم بكل من هب ودب

سأعترف منذ البداية باني لست مؤهلا للحكم على ما يجري في بلدي المغرب

ومع ذلك، كشاعر مغربي مهاجر، سأحاول قدر الاستطاع القاء الضوء على ما يحز في مخيلتي ولو عن كثب. سأقتصر على المشهد الشعري فقط ولا ادعي انني قرأت كل الاعمال الشعرية المغربية لكنني أزعم أنني تابعت كثيرا من أخبار صدورها.

من استقراء النصوص المتراكمة على واجهات الانترنت العديدة والصحف والمجلات التي تصلني هنا في لندن، يمكن القول ان المشهد المغربي يعاني من مشكلة ازدحام بكل من هب ودب في كتابة الشعر وأحيانا اتساءل هل سيصبح المغرب بلد المليون شاعر ـ شاعرة؟

واستغرب للكمية الهائلة من كتاب الشعر الموجودة الان في الساحة الثقافية بالمغرب.

لاحظ عدد من الكتاب والادباء المغاربة الذين تعرضوا للمشهد الثقافي بالمغرب. بالتحليل والتقييم أن المؤسسات والاوساط الثقافية لا تهتم كثيرا بالقيم الجمالية التي يتوفر عليها النص الشعري. كما نجد اشكالية غياب عنصر الرصانة في بعض ابداعات الشعراء الشباب التي تنقصها ـ في اعتقادي ـ الممارسة الفنية ذات الابعاد الانسانية التي تميز بين الغث والسمين.

ولكن التطاول على نظم الشعر واساءة التعامل مع وظيفته الاساسية الا وهي الذائقة جعل الساحة الثقافية تفتقر الى الاحساس الوجودي التي يتمتع به جل المهتمين بثقافة الشعر.

حاليا، ثمة حركة حداثة واعية وجادة تكتسح أجواء الوسط الثقافي المغربي، لكنها لا تزال في طور التكوين. هل تشهد تقدما ؟ لا اظن أن أحدا منا يستطيع الاجابة...

طه عدنان: بروكسيل: بالرقص وحده لا يمكن تحريك الوسط الثقافي المغربي

من الصعب نفي الحراك الذي يعرفه المشهد الثقافي في المغرب، فالمركز الثقافي الفرنسي لوحده ينجز أنشطة غاية في الجدّية والاحترافية. لكنني ألاحظ أنّ هناك اتجاها واضحاً لتغليب ثقافة الترفيه من خلال مهرجانات موسيقية وفنية من النوع الذي يضمن انخراط الجمهور العريض على باقي الأشكال الثقافية الأخرى. والمؤسف أن الانتصار لهذه الأشكال الثقافية الكرنفالية، التي لا يُعوزها الدعم الخاص، من طرف وزارة الثقافة بالخصوص، يأتي غالباً على حساب الأنشطة الثقافية الأكثر جدّية واحتياجاً الى الدعم العمومي. فموازين جاء ليُقبر مهرجان الرباط مثلاً. هذا المهرجان الذي كان معروفا بملتقياته الثقافية والأدبية كمهرجان الشعر المتوسطي الذي كان ينظمه اتحاد كتاب المغرب. رغم أنّ هذا الأخير كان يدعو اليه شعراء من أقصى سواحل المحيط الهادي فيما هناك شعراء مغاربة يكابدون قصائدهم وعزلتهم على سواحل المتوسط دون أن يلتفت اليهم أحد.

ومشكلة هذه الملتقيات، على ندرتها، تكمن في أنها تحولت الى مناسبة للقاء نفس الوجوه. أدباء رسميون أو حزبيون، ومناديب «مستقلون» لجهات رسمية وحزبية. مسؤولو منابر ثقافية تتكرّر دعوتهم ليضمن الملتقى اشعاعه الاعلامي الدائم. متعهدو مهرجانات ومقاولو أنفار ممن لهم القوة الاقتراحية اللازمة والدائمة لبعث هذا ليتلو شعراً هناك وذاك لينثر نثراً هنالك. انها ثقافة «من أكل دجاج الناس عليه أن يُسمّن دجاجه». ولهذا ربما طار عقل بعض الشعراء المغاربة مؤخراً عندما حُرموا من «دجاجة النثر» في بيروت لينبروا الى ترديد محفوظة «أضاعوني وأي فتى أضاعوا». انه احساس المخذول الذي لم يردّوا على تحاياه المتكرّرة بأحسن منها، أو بمثلها على الأقل.

ما نحتاجه اليوم صراحة هو استثمار التراكم الايجابي الذي يعرفه الانتاج الثقافي والأدبي المغربي في مختلف مجالات الفكر والثقافة والابداع، والتفكير في ممارسات ثقافية جادة تساهم في الرفع من مستوى هذا الحراك وتنخرط في الترويج له محلياً وعربياً ودولياً. أيضاً نحتاج الى قليل من النزاهة والديمقراطية في تعاملنا مع أدباء المغرب. لحسن الحظ هناك أنترنت، التي على علاّتها، جعلت العديد من مبدعي المغرب العميق يفكّون الحصار عن تجاربهم الكترونياً. لكن على المؤسسات، بدءا بوزارة الثقافة المتفرغة هذا الصيف بشكل كلّي لمهرجانات الرقص والغناء وانتهاء باتحاد الكتاب وبيت الشعر، أن تتعامل بجدية مع الدينامية التي يعرفها المشهد. نحتاج أيضاً الى بعض الاخلاص في العمل والصدق في المتابعة. فما معنى أن تُصدر وزارة الثقافة مثلاً سلسلة متميزّة اسمها «الكتاب الأول» وتنجح في استقطاب نخبة من الأقلام الجديدة في الشعر والقصة وغيرها، لكنها وبمجرّد طباعة الكتب يتمّ اخفاؤها في مخازن موزّع مدلّل اسمه «المركز الثقافي العربي» لا يوزّعها حتى في الرباط، مقر الوزارة، بل ولا يعرضها حتى في مكتبته الخاصة بالدار البيضاء؟ وحينما يريد الكُتّاب شراء نسخ من كتبهم لتوزيعها مجّاناً على الأصدقاء لمشاركتهم فرحتهم باصدارهم الأدبي الأول يكون عليهم أن يتفاوضوا طويلا مع هذا الموزّع الذي يُشهر في وجوههم أسعاره الصارمة وآلته الحاسبة بفجاجة تاجر خردة. ان المغرب الثقافي في حاجة الى مشاريع جادة بمسارات واضحة. والمؤسف أن أغلب مشاريع مؤسساتنا الثقافية في المغرب (الكتاب الأول، الدعم المسرحي، دعم النشر، الخ) رائعة من حيث المبدأ لكن عدم متابعة التنفيذ بجدية وانشغال المسؤولين عن ذلك بمهرجانات الرقص والغناء يكاد يُفرغها من مضمونها. ورغم أنني لست ضدّ فن الرقص على الاطلاق، لكن ليس بالرقص وحده يمكن تحريك الوسط الثقافي المغربي.

حسن الوزاني: الرباط: أعيش في بلد لا تتجاوز حصة ميزانية أسرته الخاصة بالثقافة والتعليم والترفيه ثلاثة في المائة من ميزانيتها العامة

لا أحب أبدا خطاب الأزمة. خصوصا حينما يتعلق الأمر بالحديث عن الثقافة المغربية، اذ اشعر أننا نحتاج أكثر الى أن ننظر الى هذه الثقافة والى مشهدها كما هي وكما هو بدون أن نتماهى في المقارنات، خصوصا حينما يتعلق الأمر بمقام لا يسمح بأكثر من انطباعات سريعة. فخطاب الأزمة يلغي كل العلامات المضيئة التي يمكن أن يحفل بها مشهدنا الثقافي. نحتاج أكثر الى قراءة عادلة. وهي قراءة يقتضيها الوضع المركب والمفارق لثقافتنا ولمشهدها العام. فالمغرب كان من آخر الدول العربية التي عرفت دخول استعمال الطباعة الحجرية. وتأجل صدور أول ديوان شعري الى سنة 1936. ولم يكن الانتاج الأدبي يتجاوز خلال فترة طويلة خمسة أو ستة أعمال في السنة وتأخر ظهور دور النشر المهنية الى منتصف ثمانينيات القرن الماضي وظلت نسبة الأمية مرتفعة بشكل مرعب الى غير ذلك من المؤشرات. وفي نفس الوقت، استطاع المثقفون والكتاب المغاربة، بامكانيات بسيطة في غالب الأحيان، صنع لحظات مشرقة في مجالات الابداع الأدبي وفي حقول البحث في العلوم الانسانية وغيرها وذلك في غياب مؤسسات ثقافية وأدبية بمعناها الاحترافي الصرف. لا أسمح لنفسي بأن أحلم بمشهد ثقافي أشبه بأي مشهد أوروبي على سبيل المثال حيث تصدر في بلد واحد وخلال لحظة الدخول الثقافي فقط أعمال روائية يفوق عددها بكثير ما أنتجناه خلال قرن ونيف، وحيث حققت مؤسسة الكاتب والكتابة تراكما مذهلا أشبه بما قد تحققه المؤسسات الأخرى، ذلك لأنني لا أحب أن أنسى أنني أعيش في بلد لا تتجاوز حصة ميزانية أسرته الخاصة بالثقافة والتعليم والترفيه ثلاثة في المئة من ميزانيتها العامة، حسب الاحصاءات العامة، وحيث ينفق المواطن المغربي، في المعدل، دولارين في اليوم لتغطية مجمل متطلباته بما فيها الأكل والشرب والثقافة والسفر واللباس وغير ذلك، حسب الاحصاءات الرسمية دائما وقد يكون الوضع أكثر سوءا من ذلك. ثقافتنا تستحق وضعا أفضل ومشهدا حقيقيا، غير أن ذلك لن يتحقق الا حينما يكون المواطن، باعتباره مثقفا أو مستهلكا مفترضا لهذه الثقافة، في وضع جدير بانسانيته أولا.

كما أنني أتجنب التماهي مع بعض الكليشهات التي قد تقودني اليها القراءة الانطباعية . كنتُ خلال فترة طويلة أنظر الى ثقافة الفقهاء والعلماء المغاربة خلال القرن التاسع عشر وما قبله كثقافة محافظة ومنغلقة على ذاتها ومظلمة. ثم قادني الانصات والتأمل والبحث في بعض معالمها الى اكتشاف قساوة بعض الأحكام التي نستهلكها. وأجد الآن أن هؤلاء الفقهاء والعلماء قد استطاعوا أن ينسجوا تواصلا حقيقيا ومدهشا بين أعمالهم. ويعكس هذا التواصل، الذي يتبدى خصوصا من خلال فهارسهم وحواشيهم وشروحاتهم، عن شجرة مدهشة لسيرورة المعرفة، بغض الطرف أحيانا عن طبيعتها. ويعني ذلك أنهم كانوا أكثر تواصلا منا نحن الذين نتبجج بتكنولوجيا المعلومات والاتصال. ويعني ذلك أيضا أنني أجد الأمر كافيا لعدم التماهي مع جرد ما لايروقني في الثقافة المغربية الحديثة وفي مشهدها، على الأقل ليس في حيز كلمة عابرة.

ابراهيم الحجري: آسفي: مشهد ثقافي كله وحل في وحل

يا أخي لقد قلبت علي المواجع، كيف يمكن أن أحدثك عن حال الثقافة بالمغرب في بضعة أسطر؟ واقع الثقافة عندنا كواقع السياسة، ومن يصل الى السياسة يتحكم في الثقافة؛ حتى ولو كان أميا، بالكاد يعرف كيف يرتمي في حضن زوجته، ويملأ بطنه الجحيمي. الثقافة عندنا رافد من روافد البدع والضلالات وقنطرة للعبور الى المناصب والدرجات، بعضهم ينتمي الى اتحاد الكتاب وهو لا يقدر على كتابة مقال فصيح، وبعضهن دخلت الشهرة من بابها الواسع لا لشيء الا لأنها رعت نزوات فلان وجالست فلفلانا في مقهى ما، المثقف عندنا ليس هو الذي يقول الحقيقة ويفضح الترهات، بل هو الذي يجيد المناورة ويعرف كيف يجامل بنزق، المثقف هو الذي يحمل بطنه وجزأه السفلي ويهاجر بحثا عن طرائد في سوق المهرجانات «الثقافية» (بالشين)، بحثا عن جسد وخمرة ومأكل، سوق الثقافة عندنا تحارب النبغاء وتهمش المبدعين الحقيقيين، وترفع من هب ودب وتتعلّم في النقابة والجمعيات ومقرات الجمعيات، بمعنى آخر ان مصير الثقافة عندنا يطبخ في مقرات الأحزاب، والتمثيلية لا بد أن تمنح ولو كان المعني قردا. هنا، المؤسسات ترعى فساد القيم الثقافية وتدعم الفقاعات وتزرع الشر وتنمي الرداءة، هذا هو حال الثقافة والمثقفين عندنا: هزال، نميمة، كذب، مجاملات، ولا شيء في «القراب» غير السم البشري. والملفت للنظر أن هذه الظواهر العبثية تبرعم بمباركة من بعض المثقفين الذين يفترض فيهم تصفية الواقع من الطفيليات والمكروبات. ورحم الله من قال «اذا أسندت الأمور لغير أهلها، فانتظر الساعة». وفي خضم هذا الوحل تنطفئ الاشراقات الجميلة التي قد تومض لحظة ثم تصطدم بواقع الحال فتتراجع. كنا نقول انه مع الجيل الجديد ستتغير الأمور جذريا، غير أن الطامة الكبرى بدأت معالمها تتضح: جيل فارغ غير قادر على التحدي، كل همه التسابق نحو العضوية في الاتحاد عن طريق المجاملة والتمسح بالأعتاب، والتزاحم على الحضور المشوه والمذل في المهرجانات والمواسم السوقية والأيام والليالي والأسابيع التي تحرق فيها أموال الضعفاء والمساكين، لا لمناقشة القضايا العالقة للثقافة والفن والواقع، بل لاشباع الرغبات المتعددة المكبوتة التي لا تشبع مثل «ناقمة» رهيبة.

اصلاح المشهد الثقافي يبدأ بالذات، أن تتكون وتطالع وتقرأ وتبتعد عن زحام اللقاءات الفارغة التي لن تكون سوى نسخ لفقاعات متشابهة، فكل العباقرة قلما تظفر بهم حتى في الأماكن العامة، فبالأحرى في هذه المهرجات واللقاءات الشوهاء التي لم تعد تليق حتى بـ«شيخات الدواوير»، وأن لا تجامل وتقول كلمة حق ولا تشهد زورا، أن تقرأ وتكتب في صمت لتكون، بذلك، المثقف الذي ينطق ان فشل السياسي؛ وتكون الفيصل ان اشتبكت الفضائل وتناحرت القيم. وعصارة القول انه مادام المثقف هشا فلن يكون هناك سوى سياسي هش ومجتمع مدني هش وبنيات هشة وهلم جرا وجرجرة.

عبد العزيز الراشدي: ذاكورة: الفضل في الحركة الثقافية يعود للهوامش لا المركز

تريدني أن اكتب عن المشهد الثقافي المغربي،وعن زواياه المعتمة، ومشاكله، وعن رأيي وانتقاداتي، ورؤيتي للمؤسسات الثقافية، وهل ثمة حركة ثقافية بالمغرب؟ أم أنه الوهم فقط؟ وتسألني عن حيز الثقافة في واقعنا وعما يحز في نفسي ؟ كل ذلك في صفحة واحدة...

ماذا أقول..؟ هل أبدأ من النهاية وأقول ان ما ينقصنا كثير؟

أريد أن يكون للمبدع قيمة، وأن يحصل على دعم لأنشطته سواء من الدولة أو المؤسسات الخاصة، وأن يراعى وضعه الاجتماعي وشروط حياته واستقراره النفسي ...كيف نطلب منه أن يبدع في ظل شروط غير متوازنة؟ يجدر بالمؤسسة أن تراعي خصوصية المبدع، وأن تمنحه المكانة التي تليق به، سواء عبر طبع كتبه أو دعم اللقاءات والأنشطة ،لأن تشجيع الثقافة هو السبيل نحو بناء مجتمع متحضر،وهو العمود الاساسي للتنمية التي نتحدث عنها صباح مساء دون تفعيلها..وهو أساس بناء صورة مشرقة ..

شوف يا صديقي، لماذا لا يستفيد الكاتب المغربي من التفرغ كما هو الشأن بالنسبة لبعض الدول التي تحترم المبدع؟ وأين هي كلمة كاتب في البطاقة الوطنية؟ وأين هو تأمين الكاتب الصحي؟وأين ...

أما عن مشاكل المشهد الثقافي بالمغرب فلحسن الحظ،لم يعد هناك قمع للحريات كما في الماضي، أعني ليس بنفس الدرجة على كل حال، فلا رقيب على الكتب،والمطبوعات، لكن للأسف، بدل أن تقمع الدولة المثقف، أصبح المثقف يحفر حفرا لأخيه،وفي المحصلة، يقع فيها، لأن ذلك يؤثر على وضعه وصورته أمام الناس..لم تعد النخبة المثقفة موحدة ولم يعد الكاتب يساند أخاه، وأصبحنا نعيش انتفاخا مرضيا للذوات، وتملقا ومديحا مجانيين..

لدينا حركية ثقافية بالمغرب، مقارنة مع المشهد الثقافي في باقي الدول العربية، والفضل فيها للهوامش المبدعة التي تناضل من أجل الحياة لأنها تؤمن بالثقافة وقيمتها، ولدينا قراء متعطشون للكتاب، لكن ينبغي على الدولة أن تبذل مجهودا أكبر لدعم الثقافة والنشر كي يصل الكتاب الى القارئ ويكون في المتناول..ولأن قضايا هذا الكائن المسمى مغربيا مترابطة،فان النظر الى واقعه الاجتماعي وتحسين شروطه وتوفير الشغل له طريق قصير نحو استقراره، وحين يشبع البطن ،كما نقول في المغرب، يقول للرأس غنّ...أم يقول له أكتُبْ؟

أحمد بوزفور. الدار البيضاء: لم يتبق لنا سوى الأمل

الذي لا يروقني ليس هو القضايا أو الموضوعات أو الأشخاص أو الانتاجات.

الذي لا يروقني هو طريقة القضايا وطريقة طرح القضايا وطريقة تناولها وطريقة استثمارها في الساحة الثقافية.

ففي اطار الاستراتيجية المغربية للتنمية لا تشكل الثقافة الا مرتبة دنيا في اهتمامات الدولة والأحزاب والمثقفين أنفسهم.

وبناء على هذه النظرة الدونية للثقافة، لا تطرح القضايا ان طرحت بجدية ولا يستمر النقاش فيها حتى يحرز تقدما، ولا تستثمر نتائج الطرح، بحكم هزالها، وبحكم الاهمال، في توسيع قاعدة المهتمين وتعميق اهتماماتهم.

ربما تحت ضغط الظروف الاقتصادية أو بحكم احتدام المنافسة الانتخابية أو بحكم النظرة الأمنية الى الحراك الاجتماعي أو هيمنة الثقافة التقليدية المريحة للعقل بالغائها الشك والنقد واقصائها الفرد والمستقبل والمرأة والطفل... ربما لبعض ذلك أو لذلك كله تتراجع الثقافة بمفهوم النقد أو الابداع وخلخلة الراكد في اللاوعي الجمعي وحرية التفكير والتعبير والنقاش– يوما بعد يوم في حياتنا الاجتماعية.

لكن رغبة الشباب الحارقة في الخروج من هذه الشرنقة رغم كل شيء واصرارهم على الانتاج الحر في هذه الظروف.... يوحي بشيء من الأمل، وهو الذي بقي لنا من الثقافة الآن على أي حال.

احدى الندوات في المغرب

أية ثقافة في العراق المحتل لتصبح بغداد عاصمة لها؟

عبد الرحمن مجيد الربيعي*

■ قرأت أخيرا خبرا عن اختيار بغداد عاصمة للثقافة العربية عام 2009 وان لجنة تشكلت في وزارة الثقافة لهذا الغرض. هكذا جاء الخبر باقتضاب دون الاشارة الى الذي قام بالاختيار.

بعد ان فرغت من القراءة وجدتني اضحك بصوت عال. اقهقه على غير عادتي فقد اعتبرت الخبر من باب الطرائف التي اعتادت الصحف نشرها لتسلي بها قراءها والا كيف يمكن اختيار بغداد المحتلة التي تتحكم فيها العصابات والميليشيات المعروفة بعدائها لكل ما هو عربي واشتغالها على مشروع تفريس كل ما فيها او امركته عاصمة للثقافة العربية؟

ان بغداد بالنسبة لكل العرب هي عاصمة من عواصم الثقافة العربية الكبرى شأنها شأن القاهرة وبيروت ودمشق تأريخيا وحاضرا حتى جاء الاحتلال وبضاعته الرديئة التي حملوها معهم ممثلة بأشخاص لا علاقة لهم بالعراق اطلاقا ولا بما ترمز له عاصمته الثكلى التي اطل من شرفة قصره فيها الخليفة العباسي هارون الرشيد ليخاطب الغيوم المرتحلة بأنها اينما امطرت فسيعود خراجها لبغداد.

عندما هبطت اكياس البضاعة الرديئة المحمولة بالدبابات والحوامات بدأ الخراب، وليس صدفة ان يكون الهدف الاول لهذه المخلوقات العمياء معالم بغداد الحضارية، قديمها وحديثها، فنهب المتحف وتم تكسير ما صعب على النهب، وسرق متحف الفن الحديث الذي يضم خلاصة فن الرسم العراقي ولأبرز رموزه وحرقت المكتبات العامة الرئيسية: الوطنية وجامعة بغداد ومكتبة الاوقاف وتضم كلها مخطوطات وكتباً نادرة تعد ثروة وطنية وعربية لا يمكن تعويضها، ومعها حرقت مجلدات الصحف والمجلات التي تحفظ ذاكرة البلاد ومراجعها ودقائق ما مرّ بها.

لأي ثقافة تكون بغداد عاصمة؟ ومن هم الذين يعدون لمثل هذه المناسبة الكبرى التي عرفتها عدة عواصم عربية من قبل بدءا بتونس وعمان والقاهرة وصنعاء والرباط ومسقط حاليا؟

وماذا يقدمون في مناسبة كهذه؟ ومن هي الوجوه النيرة التي ستضيء المشهد والبلد قد خلا منها ولم يبق فيه الا مبدعون اصليون قلائل كلهم منسحبون ولا يفكرون بالمساهمة في عرس الطوائف وحفلات قطع الرؤوس التي افرزتها ثقافة الاحتلال والطوائف التي تذبح بعضها على الهوية؟!

ما يفعله هؤلاء الصغار المدعون امر معيب ويسيء لثقافة العراق التي كانت دائمة العطاء ابداعا واسماء ومن كافة الأجيال وكانت بغداد بستانها الذي غنت فيه كل الاطيار بحب واخاء، ولم يسأل احد عن منحدر اي منها، من عبد الحق فاضل وذو النون ايوب ويوسف الصايغ الموصليين الى الجواهري النجفي والى مهدي عيسى الصقر والسياب وسعدي يوسف والبريكان البصريين الى عبد الوهاب البياتي ونازك الملائكة وعبد المجيد لطيف وعبد الملك نوري البغداديين الى عبد الرزاق عبد الواحد (العمارة) الى ابناء جيل الستينات الذين انحدروا من كافة مدن العراق. فجاء سركون بولص وانور الغساني وجليل القيسي ويوسف الحيدري وفاضل العزاوي وجان دمو وصلاح فائق من كركوك وهم يمثلون كل القوميات والديانات المتآخية داخل هذه المدينة الرمز الذي يريد الطالباني والبارزاني تكريدها والحاقها بأقليمهما، وجاء كتاب جنوبيون آخرون من البصرة محمد خضير ومن الناصرية كاتب هذه السطور ومن الحلة برهان الخطيب وحميد سعيد ومن بغداد نفسها اسماء كثيرة امثال سامي مهدي وعبد الستار ناصر وفاضل الربيعي ومن العمارة حسب الشيخ جعفر عدا مساهمات ادباء وفنانين من محافظات اخرى في ذلك الجيل مثل المرحومين موسى كريدي (النجف) وغازي العبادي (القرنة) وخالد حبيب الراوي (راوة) وغيرهم. وفي السنوات اللاحقة اكتنزت بغداد بأسماء كثيرة في الرسم والمسرح والكتابة والنحت والموسيقى والغناء والسينما.

لقد بدأ التهام هذا الجسد الثقافي الجميل منذ سنوات الحصار الأولى (الفنانة ليلى العطار قضت تحت القصف وهي في منزلها) وخروج عدد كبير من المبدعين الى انحاء الدنيا المختلفة ووصلوا الى بلدان لم يفكر بها حتى الذين وصلوها او يعرفون موقعها على الخارطة.

ثم جاء الاحتلال ليفرغ البلد ويصحره بالاجهاز على النخبة المضيئة فيه، اساتذة جامعة واطباء وكتاب كبار حتى الذين عادوا مع الاحتلال سرعان ما غادروا هرباً والشرفاء منهم تجرأوا على كتابة ما رأوه امثال الشاعر صلاح حسن والمرحوم الشاعر كمال سبتي وغيرهما.

ووجدنا عددا من الكتاب المقيمين في الخارج وقد اثارتهم محنة الوطن والاهل فبدأوا الكتابة لكشف ما فعله الاحتلال ومرتزقته اللصوص.

لقد سرقوا كل ما في الوطن، من النفط الى الآثار، الى البنوك والمشاريع الوهمية، وها هم يعدون الآن لسرقة ما تبقى من ثقافة الوطن وتجييرها بأسمائهم وهم اعداء هذه الثقافة والذين عملوا على هدمها وازاحة رموزها رغم انها باقية ماثلة في ضمير الانسان العراقي الذي لم تلوثه الطوائف ولا الاعراق، ولم تنل منه العمائم او الشراويل او العقل المباعة. صحيح ان هؤلاء متفائلون اكثر من اللازم عندما يظنون انهم باقون على عروشهم حتى عام 2009 ولكن البلد انجب ثقافة مضادة لهم، ثقافة مقاومة لكل مشاريعهم وهي التي ستشكل الوجه الجميل للعراق المبتلى.

اما وزارة الثقافة في عراق محتل فانها لن تستطيع ان تكون وزارة ثقافة كما هو اسمها فهاقد الشيء لا يعطيه ابدا، وقد دهشت (رغم ان الدهشة اصبحت امرا عاديا حتى ان المرء لا يحس بها ودخلت في باب المألوف) عندما شاهدت من احدى فضائيات الاحتلال عرضا لمجلة جديدة اصدرتها وزارة الثقافة واذا بصور محمد باقر الحكيم الذي ذهب ضحية تفجير في واجهة احدى الصفحات وربما تكون على الغلاف ويليها موضوع عن المهدي المنتظر. ولا ادري ماذا فيها من مواد اخرى مكانها بالتأكيد ليس مجلة تحمل اسم وزارة ثقافة في بلد متعدد.

هؤلاء السواديون الذين يسيرون (ثقافة) العراق المحتل يبيعون الوهم على انفسهم قبل غيرهم وهم معزولون لم ينالوا اعتراف احد الا من شابههم.

* كاتب من العراق

«فرح معلق في آخر سطر».. لمصطفى الكيلاني:

متعة التغني بالخيبات والهزائم في انتظار ما لا يأتي

نديم الوزة*

حين يكون :
الاسم
لا يدل عليك
والجسد
خارطة جديدة للاستهلاك
والروح
عربة قديمة معطلة
والرغبة
سرطان آخر الحروب
والدهشة
طوفان آخر الحروف....

سوف يرتد الكاتب أو الأديب التونسي مصطفى الكيلاني الى ذاته كي ينتظر، كغيره من أدباء هذا العصر، ما هو غير منتظر طالما أنه لم يأت.. لكن، وربما كي لا يضجر في انتظاره كثيرا، يحاول أن يتسلى، كأكاديمي وناقد، «بعادة سرية» هي ما يستطيع أن يعيد من خلالها الاعتبار لشيء من الألفة والحميمية لكي تعبق بروحه وجسده بعد الذي حل بهما من استهلاك وعطالة .

وهو اذا ما كان بذلك يخدع ذاته، ويوهمها، بشيء مما سمع به، أو قرأ عنه في الأيام الخوالي، كفتاة الياسمين، أو الحسناء البدوية، أو حتى «أشرطة الفلفل المشمس وضفائر الثوم المعلقة في شرفات الأزقة العتيقة» الا أنه لا يلبث أن يوقظ هذه الذات ليخبرها أن كل ذلك هو «حبيس غبطة لن تكون». أو كأنه يبدو رهينا لاحساس بالفقد واللاجدوى، وليس لديه ما يسليه سوى أشياء متواضعة، ولكنها تتوافق واهتماماته المعنوية، كأن يقرأ، و يكتب، ويصير مقروءا بدوره. لكن حين تبدو الحياة بلا معنى، و يبدو السؤال الوجودي حول الاختيار بين الموت والانتحار، لأن «لاعب كرة قدم متقاعد أضحى اليوم زعيما» أو لأن «هذا الذي يسمى الانسان لم يعد ثدييا تماما كما كان»، فمن المرجح أن تكون الأبواب مغلقة على أشيائها التافهة، أو مفتوحة على مواتم ماثل للعيان بما تمثله صوره المتضمنة لانتهاكات لا تحدث الا في الحروب والكوارث ومجازرهما .

لكن أن يجرأ مصطفى الكيلاني على تصعيد أزماته على هذا النحو قد لا يعني أنه متورط تماما في سيرة ابداعية محورها الكتابة الأدبية، وما يعنيه ذلك من اندفاعات الذات الى مجاهيل لا تستطيع عقلنته البارعة للمهمات أن تستكشفها، ليس لأنه يعترف بأن «كتابة الشعر والأدب عامة تتماهى ودموع النساء العاجزات عن منع الأذى» وما ينبغي هو «مقارعة القوة بالقوة»، وانما لأن ما دفعه لاعتبار فعل الكتابة مجددا، بعد انشغاله عنه بالسياسة وتمظهراتها، هو مجموع الهزائم والخيبات التي نالها من جراء المظاهرات والخطابات والمناشير .. الخ . فيتحول هذا الفعل، فعل الكتابة، الى نوع من التعويض أو المماثلة للعودة والالتجاء الى أحضان الأنوثة .. وبالفعل ألحت الى هذا المنحى السريري لفعل الكتابة لديه منذ البداية. وعلى أية حال ان تعرية الذات، ولو كان ذلك استمنائيا، يبقى أكثر جرأة وجدوى من الزهد والتقشف اذا لم أقل الخصاء :

تلك يدك بأصابعها الخمسة
تستدعي حواسك الخمس:
الوسطى عين رائية،
البنصر أذنان في واحد،
السبابة أنف متيقظ يتشمم ظله،
الابهام لسان في حال رضاع،
الخنصر حلمة،
والماء يسري الى المرفقين ...

بل ربما ما أراده مصطفى الكيلاني من اعترافاته السابقة أيضا، يستدعي لفت الانتباه الى احدى مهمات الكتابة البديهية وأقصد بها المتعوية، وهي، بالتفسير أو الفهم الفرويدي، قد تتيح للعذابات والآلام بالحضور، كحالة مازوشية قد يروق للمهزوم والخائف التغني بها. لولا أن عنوان كتابه الذي أقرؤه الآن، والصادر عن دار الميزان بتونس هذا العام 2006، يتحدث عن شيء آخر، و لكن لا يخرج عن مفهوم الكتابة ومتعتها، بل هو عالق بآليتها وأدواتها طالما أنها لعبته المدمن عليها، و طالما أن ما يجنيه منها هو هذا العنوان «فرح معلق في آخر سطر...».. غير أن فرح اللاعب بالكلمات غير فرح اللاعب بالكرة، و الفارق ليس بالتأويل، وانما بوجود المعنى أو انتفائه ..بهذا المعنى يمكن الحديث عن اعتبارية للكتابة لدى مصطفى الكيلاني وعبرتها في مقاومة كل من يحاول الغاء الانسان وكينونته الحية في محاولة اثبات وجوده ككائن متمايز بحواسه وعواطفه وعقله، وانما من أجل ذلك يحاول أن يجد سندا أو نصيرا من ذاته أولا ومن الآخرين بالتالي، وقد لا تكون كتابته الأستذكارية لاصدقائه المبدعين الا لحظات استقواء هي الأكثر رشاقة وفرحا وان كانت لا تخلو بدورها من ألم الموت ورقصاته كاستذكاره للكاتب العراقي ماجد السامرائي:

دجلة ينزف
والكتاب الذي بين يديك
اهترأ غلافه ...
تكاد الحروف تتلاشى
الا أنت...
تغالب العاصفة
ولا تنحني

* شاعر من سورية